



KSU logo

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
كلية الآداب قسم اللغة العربية

قضية الالتحاق

إشراف الدكتور : سعد العريفي

إعداد الطالب : فيصل بن صالح السرحان

الرقم الجامعي : ٤٣٤٩١٠٢٩١

١٤٣٧ - ١٤٣٦ هـ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ

مقدمة :

لعلنا لا نخطئ حين نقول إن قضية الانتحال تُعدّ من أهم القضايا التي تناولها النقاد بالدرس ؛ ذلك لأنها تلامس الأس الذي يقوم عليه الشعرُ الجاهلي في ذهن المتلقي ، وتبين مدى حقيقة علاقته الوثيقة به ، لذا عني النقاد في القدم بهذه القضية وأولوها جزءًا كبيرًا من اهتماماتهم ، ثم تبعهم الدارسون المحدثون ونحو منحا لم يكن مألوفًا في الساحة الأدبية ، ولا في الصورة الثابتة عن الشعر الجاهلي ، ووظّفت في سبيل هذه الدراسات الحديثة رؤى فلسفية ، ومناهج غريبة أحدثت نقلة في طريقة التعامل مع الأدب ، ونظرًا لأهمية هذا الموضوع وهذه القضية اخترت البحث والنظر فيها ، ولكونها أيضًا تحمل مساحة واسعة يستطيع الباحث أن يُطلّ بشخصيته من خلالها ، أو أن يُظهر جانبًا مهملاً أو رؤية بعيدة مع ما هو مبثوث في الكتب ومعلوم من القضية ولازم ذكره وعرضه في سياق الحديث عنها.

ولقد قسّمتُ البحث إلى ثلاثة مباحث ، جعلت الأول منها للحديث عن رؤية العرب القدماء للانتحال ، وكيفية حضوره عندهم ، وأسعى من خلال هذا المبحث إلى تبين مفهوم العربي في العصر القديم للانتحال وفقًا للمرحلة الزمنية التي يعيشها وكيف كان تصوره له ، ثم جعلت المبحث الآخر للحديث عن النقاد العرب القدماء ، وقد عزمت على النظر في طريقة رؤيتهم لقضية الانتحال وكيف تناولوها بالدراسة ، ثم المبحث الأخير جعلته عن الانتحال عند المحدثين من عرب ومستشرقين وسأبين بإذن الله تصورهم عن الانتحال وعن الشعر الجاهلي بشكل عام باسطة القول في هذا الجانب تبعًا لقوة الأثر الدراسي لكل دارس منهم.

ولا يفوتني أن أشير إلى الصعوبات المعترضة أثناء البحث ، فقد حال ضيق الوقت وكثرة التكاليف الدراسية والاختبارات المعترضة دون تقديم البحث على الصورة التي ترومها النفس وترتضيها الغاية ، وهذا الإنجاز هو ما خرج به الجهد وسمح به الوقت المتاح.

وأخيرًا لا يفوتني أيضًا شكر أستاذنا الدكتور : سعد العريفي على إتاحتها لنا بالكتابة في مثل هذه المواضيع القيمة التي تشد من أزر الباحث وتعينه على الاطلاع ، وتفتح له آفاقًا واسعة ، وتمنحه الثقة في مجالات البحث والنقد.

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم ...

الباحث

أولاً : حضور مفهوم الانتحال في الإدراك العربي القديم :

يجدر بنا قبل الحديث عن الانتحال وقضيته أن نذكر مفهوم الانتحال الذي نُعَى به كما جاء في كتب المعاجم العربية ، فقد جاء في لسان العرب أن من معاني النحل : نَحَلْتُهُ الْقَوْلَ أَنْحَلُهُ نَحْلًا : إذا أضفت إليه قولاً غيره وادعيت له عليه ، ويقال نُحِلَ الشاعر قصيدةً إذا نسبت إليه من قبل غيره ، وقال الأعشى في الانتحال :

فكيف أنا وانتحالي القوا ف بعد المشيب كفى ذاك عارا

وقيدني الشعر في بيته كما قيّد الأسراث الحماراً^(١)

وبهذا المفهوم وما قد يرادفه كالزيادة والوضع نجد أن كتب التراث مليئة بما يدل على وجوده في الإدراك العربي القديم ، ولعل هذا الإدراك موجود بدهاء عند الأمم التي مازالت في مرحلة المشاهدة المعتمدة على الحفظ والرواية الشفهية في التواصل الإنساني ، وهذه المرحلة - الشفاهية - مرت بها كل الأمم السابقة ؛ فالصيغ التعبيرية الإنسانية في الثقافة البشرية مرت حتى الآن بأربع مراحل ؛ مرحلة الشفاهية ثم مرحلة التدوين ثم مرحلة الكتابية وأخيراً مرحلة الصورة^(٢) التي نعيش معها اليوم ، ونحن حين نُقرّر ذلك لا نعرض البديهيّات ، على أن ذلك مما لا يعيب فكثير من البديهيّات قد تغيب تمامًا لكننا ندفع من خلال ذلك ما غمّ على الكثير عند الحديث عن قضية الانتحال ونسبة الإدراك إلى المحدثين سواء من المستشرقين أو العرب ممن سيأتي في لاحق البحث الذكر عليهم ، وكأنّ العرب كانت غفلاً عن وجود هذا الأمر البديهي بينهم.

وعناية الأمم بكلامها نراه مثلاً في تحصينه من الانتحال والتصحيح والتحريف والتزويد والإنقاص ويأتي ذلك من خلال طبيعتها الإنسانية التي تهدف إلى وصول المقصد على وجهه من غير عوارض قد تحيده عن سبيله أو أن تنسبه لغير قائله ، والناس في هذا المرحلة لا تملك تحصيلاً كبيراً لأقوالها ولا توثيقاً معتبراً مقارنة بما يعقبها من مراحل ، وهذا لا يعني أنّ الأقوال قد تفرّقت ونُسبت إلى غير قائلها - وإن كان هذا موجوداً - لكنّ هذا الخطر من ضياع المقاصد يدفع الناس لاتخاذ السبل المتاحة في ذلك الوقت لحفظ

^(١) ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، لسان العرب (دار صادر ، لبنان ، بيروت ، ط ٣ ، ت ١٤١٤هـ) ج ١١ ،

ص ٦٥١ .

^(٢) انظر : الغدامي ، عبدالله ، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي (المركز الثقافي العربي ، المغرب ، الدار

البيضاء ، ط ٣ ، ت ٢٠١١م) ص ٩ .

كلامهم لا سيما الكلام الذي يراد به الرواية الذي يحفظ التاريخ والأيام ، فنجد ذلك مثلاً في النقش بالرسوم قديماً ، وحيث أن الشعر العربي شعر موزنٌ مقفىٌ يسهل معه الحفظ ويتغنى به ويتمثله الناس في أحوالهم الحياتية المختلفة أكان ذلك على البحور الطويلة أو الأراجيز الشعبية أو غير ذلك مما وصلنا من الشعر القديم ، نجد العرب تحفظ كثيراً الشعر وترويه وتعتمد على ذلك في حفظه من الضياع أو الانتحال ، ولقد أخذ العرب قديماً احتياطهم لا سيما في مرحلة حكمة الشعر والاعتناء به كما في الحوليات ، فقد حرص الشعراء كثيراً على اتخاذ الرواية الذي ينقل عنهم ويروي لهم الشعر ، ولم يكن ذلك الاحتياط إلا حفظاً للمآثر الشخصية والاجتماعية وتخليداً للموهبة الشعرية التي يجدها الإنسان في نفسه ، ومن ذلك مثلاً ما ذكره ابن قتيبة عندما ترجم للمسيب بن علس الشاعر الجاهلي فقد قال عنه "هو من جماعة وهم من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، ويكنى أبا الفضة وهو خال الأعشى أعشى قيس ، وكان الأعشى راويته"^(١) ، وعندما ترجم لزهير بن أبي سلمى قال عنه "وكان زهير راوية أوس بن حجر"^(٢) ، وحضور الرواية في العصر الجاهلي من المسلمات المعروفة عند القدماء ، وإذا عُدنا قليلاً لشعراء الارتجال -إذا صحت التسمية- نجد أن شعرهم إذا لم يتخذ له الشاعر راوية يحفظه له ويرويه عنه ، حفظته القبيلة وروته وفاخرت به ؛ ذلك أن الشعراء بالنسبة للقبائل العربية "يقودون قومهم ويخلدون مآثرهم على الدهور وينقشون مفاخرهم في الصدور"^(٣) فحرصُ القبائل على تخليد شعرائهم يأتي من مكانة الشاعر في القبيلة العربية وتخليد الشاعر للقبيلة أيضاً ، فنجد تغلباً مثلاً قد شغفت بمعلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة وأكثرت من روايتها حتى قال بعض الشعراء^(٤) :

ألهى بني تغلبٍ عن كلِّ مكرمةٍ قصيدةً قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مُد كان أولهم يالرجالٍ لفخر غير مسؤوم

ونحن لو نظرنا في هذين البيتين نظرة الفاحص المتأمل لاستعضنا بهما عن كل دليل يذكر فيه حرص العرب على رواية الشعر وحفظه ، ولدفعنا بهما كل شك قد يخالجننا حين الحديث عن الرواية في العصر الجاهلي ، فالمكارم على عظمها في عقيدة العربي وأصالتها في شخصيته زاحمتها قصيدة من الشعر بله

^(١) ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر (دار الحديث ، مصر ، القاهرة ، د.ط) ، ت ١٤٢٣هـ) ج ١ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

^(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

^(٣) الزيات ، أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي (دار المعرفة ، لبنان ، بيروت ، ط ١٥ ، ١٤٣٥هـ) ص ٣٦ .

^(٤) انظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ألهمت قبيلة قائلها عن المكارم كاملة وليست عن مكرمة بعينها ، ولا يقف الأمر على ذلك ففي البيت الثاني نجد أمرين ؛ الفخر والرواية فهم يفخرون بها ويروونها من قديم مذ كان أولهم ، وهذا الحرص قل أن تجده في غير ذي قيمة ، على أن المتلقي في العصر الحاضر حين يكون في بيئة الجزيرة العربية لا يجد إنكاراً كبيراً لهذا الحرص فهو مما قد عاشه في بيئته الاجتماعية ويجده في رواية الشعر العامي على سبيل القياس.

والحرص على الرواية لا شك أنه دَفْعٌ للانتحال وليس كونه حرصاً في ذاته فقط ، بل نستطيع أن نقول هي إحدى طرائق تحصيل الكلام من الانتحال والسرقة والوضع والزيادة ، على أن ذلك عقلاً ليس كفيلاً بجد الانتحال وإنما هو سبيل وربما السبيل الوحيد لدفعه وفق الاستطاعة التي تطلبها المرحلة الزمنية الجاهلية القديمة وما بعدها إلى عصر التدوين.

ونجد هذا الإدراك صراحة في بعض ماوردنا عن الشعراء الجاهليين ف"الشاعر الجاهلي الفحل يأنف بذاته الشاعرة من انتحال أشعار غيره من الشعراء فهو غني في ذلك ... فاستراق الشعر في نظره دليل دناءة السارق كما في قول طرفة بن العبد"^(١) :

ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيت ، وشتر الناس من سرقا
وأيضاً نرى حسان بن ثابت رضي الله عنه "يتنصل من انتحال الشعر مما يضطلع به من كرامة الحسب ، وعلو المكانة الفنية في الشعر ، بل ما وهب من قرين حذق خبير بتوشية الشعر وتحسينه ، كل ذلك يحول بينه وبين انتحال أشعار غيره يقول"^(٢) :

لا أسرقُ الشعراءَ ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري
إني أبي لي ذلكم حسي ومقالة كمقاطع الصخر
وأخي من الجن^(٣) البصير إذا حال الكلام بأحسن الحبر

^(١) الخراشي ، عبدالعزيز بن عبدالله ، ظاهرة حديث الشعر عن الشعر (جامعة الملك سعود ، السعودية ، الرياض ، د.ط) ، ١٤٣٣هـ) ص ٢٢٤.

^(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥.

^(٣) من مفاهيم العرب القديمة حول الإلهام أنه من وحي الشياطين ، للاستزادة انظر : هلال ، محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث (نخبة مصر ، مصر ، الجيزة ، ط ٩ ، ٢٠١٠م) ص ٣٣٩.

كان الفرزدقُ يصف شعر علقمة الفحل بأنه شعر لا ينحل ولا يستطيع أحد أن ينحله ، ففيه سمة تميزه عن غيره من الشعر يقول الفرزدق ^(١) :

والفحل علقمة الذي كانت له حُلُلُ الملوِك كلامه لا ينحلُ

ونحن إذا تجاوزنا حديث الشعراء عن أنفسهم أو حديث الشعراء عن الشعراء إلى عامة الناس ورؤيتهم في تلقي الشعر نجدهم بذات العقلية الإنسانية في تلقي الأخبار في كل زمان ومكان ، فرد الأخبار إلى مصادرها هي سمة الباحث المدقق الحريص ، أما تلقي الأخبار السريعة ونقلها هي صفة في عامة الناس حتى في عصرنا الحاضر ، ولو جعلنا ذلك قياساً على الشعر المروي في الجاهلية لظهر لنا أن ثمة شعراً مروباً قد يجهل المصدر ، وآخر منحول وثالث معروف لذبوعه ، ولوجدنا أن هناك من يحاول البحث عن مصادر القول ورد المسموع إلى منبعه الأول ، فالبيئة العربية القديمة كغيرها من البيئات الاجتماعية ، أما الأبيات مجهولة المصادر فنجدها مبثوثة في كثير من الروايات في الكتب القديمة لذا يكثر قولهم بـ "قال شاعر" أو "قال أعرابي" إلى غير ذلك ، أما المنحول فتحبرنا الروايات أيضاً أن بعض الشعر الجاهلي منحولٌ وطاف بين الناس نسبته لشخص وهو في الحقيقة لآخر أو لمجهول ، فنجد مثلاً المرزباني في الموشح يقول عن شعر امرئ القيس "يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشي يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا معه مثل عمرو بن قميئة وغيره" ^(٢) ويروى أيضاً أن النابغة الجعدي وهو شاعر مخضرم دخل على الحسين بن علي فودعه ، فقال له الحسن : أنشدنا من بعض شعرك فأنشد :

الحمد لله لا شريك له من لم يُقْلَهَا فنفسه ظَلَمَا

فقال له : يا أبا ليلى ، ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ، قال : يابن رسول الله والله إني لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق شعره. ^(٣)

^(١) انظر : الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٢٥ م) ص ٢٢٥ .

^(٢) انظر : ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي (دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ٣٣ ، ت ٢٠١٣ م) ص ٢٤٤ .

^(٣) انظر : مصادر الشعر الجاهلي : المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

ومن الناس من تتبع القول حتى تعرف قائله وهذا نجده في عصر الرواة المحترفين كما عند الأصمعي وغيره من دَوْن الشعر ونقله لنا ، ونحن إذا رجعنا إلى ما هو قبل الأصمعي وجدنا أمثلة من حرص المهتمين بالشعر ومعرفة مصادره منها أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت عن صاحب هذه الأبيات:

جزى الله خيرًا من إمامٍ وباركت
يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّق
فمن يسع أو يركب جناحي نعمةٍ
ليدرك ما حاولت بالأمس يسبق
قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها
بوائق في أكمامها لم تفتق
وما كنت أحشى أن تكون وفائهُ
بكفى سبتي أزرق العين مطرق

فقالوا : مزرد بن ضرار ، قالت عائشة رضي الله عنها : فلقيت مزردًا بعد ذلك فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم.^(١)

وهنا نجد أن عائشة رضي الله عنها لم تقف عند السؤال فقط بله تجاوزت ذلك لتأكيدده ، كما أن مبدأ السؤال هو من قبيل اهتمام وحرص على معرفة القائل.

وصفوة ما يقال في هذا الجزء أن مفهوم الانتحال واضح وجلي جدًا في أذهان العرب القدماء ، وأن هذا الفهم ظاهرة إنسانية طبيعية كانت ومازالت ، وليس حديث النقاد المحدثين كما سيأتي ذكره هو بدعًا وقولًا لم يعرفه القدماء وكأهم جهلوا أن الوضع والتزود ونسبة الشيء لغير قائله مما لا يمكن أن يكون ، كما أن الحديث عن الانتحال هنا في البيئة العربية يأتي لتوكيد حضوره لذا يقابله مباشرة وبذات القدر حضور الخوف من الانتحال الذي يحتم العناية بالرواية وعدم التساهل فيها لأنها السبيل الوحيد الذي من خلاله يحفظ الشعر الذي يحفظ المآثر والمناقب والتاريخ ، كما أني حرصت أن أقدم البيئة الاجتماعية في تلقي الشعر ولعلي أتيت على شيء من ذلك وإلا فكتب التراث مليئة بما تضيق به الصفحات ويطول به الحديث.

^(١) مصادر الشعر الجاهلي : المصدر السابق ص ٣٢٤.

ثانيًا : الانتحال عند النقاد العرب القدماء :

إن البدهة التي فرضت علينا القول بوجود وحضور الانتحال في الإدراك العربي القديم لتحتم علينا أيضًا القول بأن النقاد العرب كانوا أكثر إدراكًا وتفطنًا لقضية الانتحال من غيرهم ؛ ذلك لأنهم يعنون بالشعر عناية المختص بتخصصه ولا يمكن أن تمر هذه القضية التي شغلت المحدثين مرورًا عابرًا لا يعبه له ولا يتنبه إليه ، ومن خلال هذا التصور نستطيع القول دون الرجوع إلى كتب التراث القديمة أن البحث عن الشواهد التي تؤكد معرفة النقاد العرب للانتحال هو ما يعوزنا في هذا البحث ، أما تأكيده أو رفضه فلا مجال لنقاشه مادامت البديهة هي التي تفرض علينا ذلك يقول ناصر الدين الأسد "ولم يكن الوضع والنحل في الشعر الجاهلي ليخفى على الرواة العلماء ، فقد تنبه له كثيرون منهم ، بل قلما نجد راوية عالما من القرن الثاني والقرن الثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أن نص نصًا صريحًا على أن بيتًا أو أبياتًا بعينها موضوعة منحولة"^(١) ، ولقد حفلت كتب الأدب بكثير من الشواهد التي تبين مدى حرص النقاد القدماء على تمييز الشعر المنحول من غيره ، ولم يكن ذلك قصرًا على ناقد عربي بعينه بل يكاد يكون عند الجميع ، ومن خلال الاستقراء التاريخي لتلك الشواهد والنصوص نجد أن الدور الذي قام به النقاد في قضية الانتحال كان بواسطة طريقتين :

الأولى : أن يقوم الناقد ببيان الشعر المنحول من غيره من خلال ما يعرض عليه ويسمعه ويروى له ، وهذا الأمر هو السواد الأعظم عند النقاد القدماء ؛ فالأكثر منهم على هذه الطريقة وكثير من المرويات هي عبارة عن نصوص نقدية غير مبسوبة بسطًا يبين الأسباب العامة للانتحال ، ومن أمثلة ذلك مما تيسر الوقوف عليه مايروى عن الأصمعي قوله "أقمت بالمدينة زمانًا ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة"^(٢) وقال أيضًا "الناس يروون لأمية بن أبي الصلت القصيدة التي فيها :

من لم يمت عِبْطَةً يَمِتْ هَرَمًا الموتُ كأسٌ فالمرءُ ذائقها

قال : وهذه لرجل من الخوارج"^(٣).

^(١) مصادر الشعر الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٥.

^(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧.

^(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في الحيوان للجاحظ يقول "وقد رأيت عند داوود بن محمد الهاشمي كتابًا في الحيات أكثر من عشرة أجلاد ما يصح منها مقدار جلد ونصف" ^(١) ويقول "ولقد ولدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازًا كثيرة فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ، ولقد ولدوا على لسان جحشويه في الحلاق أشعارًا ما قالها جحشويه قط" ^(٢) ، أما ابن قتيبة فقد أشار في الشعر والشعراء إلى النحل في معرض حديثه عن خلف الأحمر يقول "وهو القائل :

إِنَّ بالشَّعْبِ إلى جَنْبِ سَلْعٍ لَقَتِيلاً دُمُهُ ما يُطْلُ

قال : ونحله ابن أخت تأبط شرًا" ^(٣).

والأخبار الواردة عن النقاد القدماء في هذه الطريقة مما يطول به الحديث فهي مبثوثة كثيرًا في الكتب القديمة وليس المقام هنا مقام عرضها وإنما تقرير لها في الطريقة عند الأوائل.

أما الطريقة الثانية : فقد تحوّل النقد فيها من كونه حديثًا عارضًا إلى محاولة علمية جادة وفق الإمكانيات المتاحة قائمة على بيان أسباب هذه الظاهرة ، والبحث عن الأخبار الشعرية وطرح ما عرف أنه منحول منها وبيان ذلك وإثبات ما ثبت عندهم ، وقد انتهج هذا النهج ابن هشام في السيرة وابن سلام الجهمي في كتاب طبقات فحول الشعراء ، لذا يُعد ما قاما به وثيقة مهمة عند الدارسين المتأخرين وقد استند عليها من قال بالانتحال في الشعر العربي ، أما ابن هشام فقد قام عمله على تمحيص ما جاء من أشعار في مصنف محمد بن اسحق في السيرة ، فأسقط بعضها لمخالفتها التاريخية وعدل نسبة البعض الآخر ، وذكر ما يصح في بعض الأشعار وطرح ما زاد عليه وأورد بعض الأشعار تامةً ثم بين بأنها منحولة بشكل كامل ^(٤) ، ويُعد هذا المجهود النقدي المقصود عملاً مهماً يبين جهد النقاد في محاربة الانتحال خصوصًا إذا ما انتقل إلى كونه ظاهرة بارزة ، واستند عليه في بيان مرحلة تاريخية كما في مصنف ابن اسحق ، أما ابن سلام الجهمي فقد أشار في طبقات فحول الشعراء إلى الانتحال وبسط القول في هذه القضية وكانت مقدمة كتابه ورقة نقدية مهمة لدارس تاريخ هذه القضية تحديدًا يقول "وفي الشعر مصنوع مفتعل كثير لا خير فيه ولا حجة في عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح

^(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان (دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، ت ١٤٢٤هـ) ج ٤ ، ص ٣٤٧.

^(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٧.

^(٣) الشعر والشعراء ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧٧.

^(٤) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠.

رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل بادية ولم يعرضوه على العلماء^(١) وقد بينَّ بعض الأسباب التي تدعو إلى النحل وعرض الأمثال ووضع الحجج ومن ذلك عندما رفض مايروى نسبته من أشعار إلى عاد مدلاً على ذلك بالقرآن والحجة العقلية كاختلاف الألسنة^(٢)، وأيضاً بين أنَّ من الأسباب دور العصبية التي دعت كثيراً من القبائل إلى النزود بالأشعار كي تباري غيرها وتضيف لها كثيراً من المجد ، وكما أنه أيضاً قدح في بعض الرواة وحملهم للشعر وزيادتهم عليه^(٣)، ثم إنه لم يهمل في أثناء حديثه عن الشعراء ما قد ينسب لغيرهم أو ينحل لهم ومن ذلك قوله "كان قراد بن حنش من شعراء غطفان وكان قليل الشعر جيده وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتدعيه منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات إن الرزية لا رزية مثلها ماتبتغي غطفان يوم أضلت".^(٤)

لقد كان للنقاد القدامى دورٌ مهمٌ في التصدي لهذه الظاهرة والوقوف إزاءها ، فعلى الرغم من كون العقلية النقدية في ذلك الوقت لم تتكون بشكل قائم بذاته في النقد العربي القديم إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون تمحيص الأشعار وبيان نسبتها ، وفي ظني أن الأمر لم يكن بتلك السهولة ؛ فالعرب أمة شاعرة وإحصاء ذلك الشعر ووضعها على محكّ النقد ليس باليسير ، كما أن تلك المرحلة لم تكن أدواتها لتسمح بذلك ؛ فالتدوين لم يبدأ إلا في وقت متقدم كما أن الشعر -فيما أظن- يعامل معاملة الكلام المحكي اليوم في المجالس بحيث لا يعزى فيه إلى قائله والناس يتناقلونه بالسماع والرواية وقد ذكرت ذلك في الفصل الأول من هذا البحث ، وقد كان جهد هؤلاء الرواة النقدة وهمهم الأكبر هو جمع ماصح من الشعر وتعددت طرق روايته ، بحيث يكون ما جُمع واستقرَّ في الأذهان المهمة بالشعر والرواية هو الصحيح وما عداه مما يروى بين الناس لا يعتد بنسبته ، وكأنَّ النقاد اصطَلَحوا على ذلك وكان جهدهم جمع الشعر الصحيح وتوثيقه والتنبيه على المنحول منه ، كما أنَّ ثمة ملاحظة ذكرها ابن سلام في كتابه هو أن أهل التخصص والعارفين بالشعر يعرفون منحوه من صحيحه يقول "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ماتثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما

^(١) الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود شاكر (دار المدني ، السعودية ، جدة ، (د.ط) ، (د.ت)) ج ١ ، ص ٥ .

^(٢) انظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩

^(٣) انظر : طبقات فحول الشعراء ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦ .

^(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣٣ .

تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يصره"^(١) فأهل التخصص هم المرجع في بيان الشعر وكأن المقاييس النقدية لمعرفة الشعر المنحول قائمة في الذهن وإن لم تتشكل وتقعّد في مصنف بعينه.

ومن خلال ما جاء عن نقاد العرب يعرف القارئ أن الشعر فيه منحول كثير وهذا الإقرار يجعل غير ما نقله الثقات موضع شك ، كما أنه يُبَيَّن وبقوة ما نقله الرواة الثقات ؛ ذلك أن الإقرار بوجود الانتحال يجعل على الجانب الآخر التأكيد أن ما نقله من أقر هذا الانتحال من النقاد عميق الثبات صحيح النسبة ، لاصطفائهم إياه مع علمهم وسعة معرفتهم ونفيهم لغيره وإدراكهم الشديد -من خلال ماتقدم- لشيوع الانتحال وكثرته.

^(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥.

ثالثاً: قضية الانتحال عند النقاد المحدثين :

لقد بقيت تلك الخطوط العريضة التي خطها النقاد العرب واستمرت المقاييس التي ذكرها ابن سلام وغيره حول أسباب الانتحال ودوافعه حتى كان العصر الحديث الذي انفتحت فيه المعارف وترقت به العلوم الإنسانية وشاعت كثير من الدراسات حول قضايا متعددة ، وتنافس الدارسون وأقبلوا على نبش التراث العربي واستظهار مابه من علم وأجروا عددًا من الدراسات بمختلف المقاصد والتخصصات ، ولم يكن الشعر الجاهلي العربي بمنأى عن ذلك فهو من جملة الكنوز العربية التي يفخر بها العرب ، لذا دخلت قضية الانتحال مرحلة الدراسات العملية المنهجية وأصبحت كغيرها من جملة القضايا التي كانت مهملةً في كتب التراث العربية محطَّ النظر والدراسة ، وانقسم الدارسون ممن عُنوا بقضية الانتحال من المحدثين إلى قسمين :

أولاً : المستشرقون :

لاشك أن من قرأ في دراسات المستشرقين يدرك مدى العناية الكبيرة بالمنهجية والمحاولة المطردة لإقامة الحجة وفق رؤية معينة ومقصد يرومون الوصول إليه وتحقيقه ، لذا لا يكون -في الغالب- تناولهم لقضية ما تناوَلًا عابراً ، وإنما يفنون لأجله الوقتَ ويدفعون له الدلائل ويقىمون عليه الشواهد ، وقد غني الأدب العربي بدراساتهم المختلفة ، فحذقوا لأجله اللغة والأدب ودرسوا كتبه التراثية دراسة لا يملك الناظر إليها إلا أن يتعجب من قدرتهم وجلدهم على الدرس والأمثلة على ذلك كثيرة ، وقد أثارت قضية الانتحال المستشرقين فكتبوا عنها وكان أول من تناولها بالدراسة المستشرق الألماني نولدكة عام ١٨٦٤م^(١) في مقال له باسم "من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم" ، وتكمن أهمية ما جاء به هذا المستشرق في كونه أثار هذه القضية من جديد على أنه لم يبارح في حُججه ما قيل عند العرب القدماء ، بل هو يُقرُّ لهم بالقدرة ويرجع لهم دور ومهمة النظر في الشعر والتفريق فيما بينه وإدراك ما فيه يقول "فإن البحثَ الأعظم يستطيع أن يتبين الفارق في التصور بين مختلف الشعراء العرب ، صحيح أننا لا نستطيع أن نوغلَ في الحكم الدقيق على القصائد إلى الحد الذي يستطيعه النقاد العرب ، بل سيكون حائناً أقل مما يستطيعه فرنسي أو إنجليزي من الحكم الصادق على الشعر الألماني مثلاً ، ذلك لأن ذلك يحتاج إلى معرفةٍ بدقائق

^(١) انظر : تاريخ الأدب الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦

اللغة العربية والاستعمال الشعري لا يستطيع اكتسابها أي أجنبي"^(١) ونولدكة في بحثه هذا يُرجع الانتحال إلى سبب رئيس هو الفترة الطويلة التي بقي الشعر فيها مرويًا ، وهذا من شأنه أن يُسقط منه ويضاف إليه من غير قصد ، وقد يقصد ذلك لأجل شأن من الشؤون كالتغيير لقصد ديني كأن تستبدل أسماء الآلة الوثنية بأسماء الله^(٢).

وكأي قضية تطرح في ساحات البحث العملي لا بد وأن تثير حراكًا معرفيًا وردودًا وتأيدًا ورفضًا ، لذا تعاقبت الدراسات الاستشراقية لمسألة الشعر الجاهلي وما فيه من انتحال مبيّنًا الأسباب لذلك ، وقد تلا نولدكه في دراسته المستشرق الألماني فلهم ألفرت أو كما يُسمى وليم ألورد في مقال له سماه "ملاحظات عن صحة الشعر الجاهلي" رأى ضرورة الشك في الشعر الجاهلي ، ومرةً أخرى ذكر أن المشكلة الرئيسة هي طول المدة بين قول الشعر والتدوين ، والاعتماد على الرواية الشفهية في نقله وهذا من شأنه أن يضيع ويزيد في الشعر ، كما أنه لم يهمل الحديث عن الرواة وخص حماد وخلف الأحمر واعتمد على نقل ما قاله القدماء فيهما ، ويرى أيضًا أن اللغة والدين من الأسباب التي دعت إلى الانتحال ووضع الشعر العربي يقول "ومع هذا فلا بأس بأن ليس الرواة وحدهم هم الذين بدلوا في القصائد القديمة وإن كان يمكن في أحوال نادرة تحديد من قام بهذه التحريفات إذ من الممكن تمامًا أن يكون اللغويون أنفسهم قد قاموا بإجراء عدة تعديلات لغوية .. وربما كان الدافع إلى بعضها دوافع دينية"^(٣) والحقيقة أن هذين المستشرقين لم يأتيا بجديد - في الأغلب - وإنما كرّرا الأسباب التي قالها العرب القدماء ، ويستطيع الباحث أن يأتي بقول أو أقوال لناقد عربي عن كل سبب ذكر عندهما ، بل قد أقاما أكثر أقوالهما على هذه الأسباب الواردة عن النقاد العرب^(٤) ، وإنما عمما تلكم الأسباب حتى شملت ما حفظه ونقله الرواة الثقات ، ووقفنا منه موقف الشك لا سيما في عدد أبياتها وألفاظها ، وقد تابع كثير من المستشرقين

^(١) نولدكة ، تاريخ ونقد الشعر العربي القديم ، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي ، ترجمة : عبدالرحمن بدوي (دار العلم للملايين ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٩٧٩م) ص ٢٠.

^(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٦.

^(٣) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي ، ملاحظات عن صحة الشعر الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٦٠.

^(٤) استنتج الدكتور فضل العماري جملة معايير لمعرفة الشعر المنحول عند القدماء منها القصصي والتاريخي واللغوي وغير ذلك ، للاستزادة : انظر : العماري ، فضل ، تأصيل الشعر الجاهلي (مركز حمد الجاسر ، السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٣٠هـ) ص ٣٨٧.

نولدكه وألورد في موقفهما الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان^(١) ، غير أنهم لم ييارحوا الخطوط العريضة التي قالها من سبقهم.

وإن كنا نُعدّ ما جاء عند ابن سلام الجُمحي في طبقات فحول الشعراء قديمًا منعطفًا مهمًا في دراسة الانتحال والوضع في الشعر عمومًا ، فكذلك نفعل في الدراسات الاستشراقية الحديثة للشعر الجاهلي عندما نعرض للمستشرق الإنجليزي مرجليوث وذلك لسببين في ظني أولهما : كونه نحًا في دراسته منحًا يخالف ما كان عليه السابقون ؛ حيث أنّه وظف فهمه للقرآن ابتداءً للدخول إلى مسألة انكار الشعر الجاهلي قبل أن يُبين الأسباب الأخرى التي دعت له لنفي الشعر الجاهلي ، فهو يرى أن المقصود بالشعراء في القرآن هم أولئك الكهان الذي يلوون ألسنتهم بكلمات غامضة^(٢) ، وأن الشعر المعروف اليوم هو مولّد من السجع في القرآن^(٣) ، وأن الشعراء الجاهليون لا يمكن أن يُنسبوا لغير الإسلام لما في ألفاظهم من كلمات ومعاني إسلامية^(٤) ، ويرى بأن الشعر وصل إما عن طريق الرواية أو الكتابة أما الكتابة فينفيها موظفًا بذلك فهمه لنصوص القرآن والرواية يذكر ما عليها من مآخذ ، ثم ينتقل للحديث عن اللغة واختلاف اللهجات العربية وأن ما نظم الشعر به موافق للقرآن الكريم^(٥) ، وعلى الرغم من كون هذه الدراسة منعطفًا مهمًا وطريقة مستحدثة إلا أنّها -فيما ظهر لي- لم تكن بذات القوة الحجاجية في الدرس النقدي ولولا السبب الآخر : وهو أن طه حسين أتهم بالسطو عليها لما نالها حظ كبير من الشهرة كما عرف عنها ، أما كونها ليست قوية فأعزو ذلك لأسباب منها :

- الفهم الساذج لآيات القرآن وتوظيفها توظيفًا غير علمي ، وحشد الآيات لدعم أفكاره وجاء بها مجتزأة عن سياقها بعيدة عن معانيها لخدمة الغاية التي أرادها.

- الأخطاء المنهجية والنتائج المضطربة التي توصل إليها في مقالته "فعلى الرغم من أنه حاول إنكار الشعر الجاهلي جملة وتفصيلاً فإنه قال : من غير الصواب أن نحمن بأن العرب ليس لديهم أي

^(١) انظر : تاريخ الأدب العربي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

^(٢) انظر : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي ، نشأة الشعر العربي ، ص ٨٨ .

^(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

^(٤) انظر : المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

^(٥) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

فكرة عن الوزن والقافية"^(١) رغم أنه قرر بأن الشعر بأوزانه تولد من السجع في القرآن —على حد زعمه—.

● الإنكار شبه المطلق للشعر الجاهلي ، ومحاولة حشد الأدلة التي تؤيد ذلك من دون التثبت والروية ، وهذا في رأيي خطأ منهجي ؛ حيث أنه استبق النتائج قبل البحث وحشد لأجل فكرته الأدلة التي تدعمها وتقوي موقفه من الشعر دون النظر في غيرها من الشواهد الناقضة لمبدئه.

وفي ذات المسار المنكر للشعر الجاهلي يُضيف المستشرق بلاشير في كتابه تاريخ الأدب العربي على مسألة اختلاف اللهجات سبباً آخر وهو أن النموذج الشعري الأصيل لا يمكن إدراكه نظرًا لما دخله من زيادة ووضع ؛ حيث أن الرواة العلماء —على حد قوله— قد أجروا إصلاحات جمالية في الشعر القديم وهذا يقودنا^(٢) إلى وضع مبدأ يقضي بعدم امتلاكنا أي أثر شفوي في شكله الأصيل .. ونحن نعلم أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التي يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن تتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات"^(٣) وهذه الفرضية التي طرحها بلاشير يعوزها الدليل ، وإن صحت فلا يمكن أن تكون الزيادة زيادة تغير المظهر الرئيس لشكل الشعر الجاهلي ، فقد أجمع الكثير على خصائص موحدة تجمع الأبيات الجاهلية ، وأن هذا الشكل استمر في العصر الإسلامي وحاكاه الناس وتناقله المهتمون بالشعر ورواه الرواة الذين لم ينقطع بهم السند.

ولم تكن الدراسات الاستشرافية منصبّة على نفي الشعر الجاهلي ، فقط ظهر على الجانب الآخر من يرى صحة الشعر الجاهلي ونقض كثيرًا من الآراء التي طرحها المستشرقون من قبل ، ولعل أبرز هؤلاء هو المستشرق جيمس ليال في مقدمة المفضليات ، وكذلك بسط آراءه في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص^(٤) ، ولعل أبرز ماعرضه من رأي هو أنه حتى وإن وقع الانتحال من بعض الرواة كحماد الراوية وخلف الأحمر فهما حاكّا أنموذجًا قديمًا موجودًا وليس من الموضوعية أن ننفي الشعر

^(١) مصادر الشعر الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٤١٤ .

^(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

^(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

^(٤) تعذر العثور على هذين المرجعين ، واستندتُ على ماجاء في كتاب "مصادر الشعر الجاهلي" لناصر الدين الأسد حيث عرض رأي ليال مفصلاً.

لمجرد أن راوية أو غيره نحل القصائد^(١)، كما أن شعراء القرن الأول والثاني بقوا على النمط القديم للشعر العربي كالفرزدق وجريير وذو الرُّمة ، وأخيرًا يظهر في الشعر الجاهلي كثير من الألفاظ العربية التي تنتمي لمراحل أقدم من العصر التهم بوضع الشعر فيه^(٢).

لقد قدم المستشرقون في أعمالهم رؤى نقدية حاولوا من خلالها إسقاط الشعر الجاهلي باستثناء ليال ومن تبعه ، والملاحظ في تلك الدراسات أنها تتقاطع مع كلام نقاد العرب في كثير من الأسباب كفكرة وجود الانتحال أصلاً ، وأسبابه من فساد الرواة والحديث فيهم ، وكذلك وضع الشعر لمقاصد مختلفة ، وإذا ما استثنينا حُجج مرجليوث تحديداً حول فكرة الشعر والشعراء في القرآن لأنها لا تقوم أمام النقد ، وأيضاً فكرة اللهجات واختلافها وقد رد عليها في الدراسات الحديثة ، نجد أن عمل المستشرقين لا يُبَارِح فقط بث الشك في الثابت من الشعر الجاهلي ، وتوسيع دائرة الأسباب القديمة لتشمل ماهو ثابت من الشعر ، ولعل حجر الزاوية في نقدهم جميعاً هو طول مدة الرواية على أن ذلك ألمح إليه القدماء من قديم حين ذكر أبو العلاء بأن الشعرَ فقد الكثير منه ، لكن لا يعني أنه انعدم تماماً أو فسد كما صوّره بعضُ المستشرقين ؛ فالرواية استمرت وقد اتصلت رغم تباعد الزمن ، ونحن نقدر القدرة القوية في الحفظ عند العرب من قديم وإلى قريب من العصر الحديث ، وقد أدرك ذلك المستشرق ليال يقول "كان هناك الراوي وعمله أن يحتفظ بمذخور الشعر الذي تعيه الذاكرة ، وكان يُعْتَنَى بالذاكرة في العصور التي لم تستخدم فيها الكتابة إلا في المدن ولأغراض خاصة —عناية كبيرة ، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب منها في العصر الحديث ، وليس من الغريب أن تتناقل القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة"^(٣).

ولم تقبل النفس العربية تلك الدراسات في المعظم بالاطمئنان بشكل كامل ، لذا لم تكن ردود الأفعال موازية للجزم الكبير في حق التراث العربي ، ولربما ذلك راجع لتوجس النفس العربية من كل ما جاء به الاستعمار والاستشراق في الجملة ، واستحضار سوء المقصد فيها وعدم الموضوعية ، ورفضها أيضاً بحجة عدم إلمام هؤلاء المستشرقين بالمادة العلمية العربية ، لذا لم أجد فيما بحثتُ ردوداً

^(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢.

^(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٣٧٣.

^(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧٣.

قبل أن يتبنى طه حسين بعض ما جاء في تلك الدراسات من آراء ، وربما ذلك أيضاً لانعدام الصلة وتعذر الترجمة.

ثانياً : العرب :

وإذا انتقلنا إلى العرب المحدثين نجد أن أول من ذكر الوضع والانتحال مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب ، وقد بذل لذلك جهداً عظيماً لاسيما في جمع المادة العلمية ، وتحلى هذا العمل الكبير في كمية الشواهد التي أوردها تدل على الانتحال والوضع ، وقد نظم هذه الأخبار وعنون لكل ما توافق منها وجعل لكل منها فصلاً ، غير أن الرافعي لم يدرس القضية دراسة علمية مستفيضة وإنما اقتصر على سرد ما جاء عند القدماء حتى أنه "لا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها وينتقل إلى غيرها"^(١).

لذا يُعد كتابه مرجعاً مهماً لما فيه من أخبار واسعة عن شواهد متعددة في مسألة وضع الشعر والانتحال ، ومن خلالها استخلص الرافعي الأسباب التي دعت للانتحال وعنون لها ، منها على سبيل المثال : تكثر القبائل في الرواية ، وكذلك الوضع لأجل الشواهد النحوية أو القرآنية ، أو وضع الأشعار التي يهدف من خلالها أصحاب المذاهب المختلفة تأكيد مذاهبهم ، وأيضاً ذكر باباً عن اتساع الرواة في الرواية وهذا سبب دفع بعض الرواة إلى وضع الشعر ونسبته إلى الشعراء الفحول أو غيرهم ، وكذلك الوضع المختص بالرسائل والكتب إلى غير ذلك من الأسباب المبوبة التي عرضها في كتابه ، وهي - كما تقدم - لم تتجاوز العرض والتقديم فقط دون الدراسة العلمية القائمة على النقد والفحص.^(٢)

ويحمد للرافعي هذا الجهد الكبير والسبق في محاولة دراسة قضية الانتحال والوضع في الشعر العربي ، وإظهار مادلاً على ذلك من كتب التراث وجمع شتاتها في فصل واحد.

وتلا الرافعي في دراسة قضية الانتحال الدكتور طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي ، والحقيقة أن قضية الانتحال لاتكاد تذكر في الدراسات العربية إلا ويذكر معها طه حسين ، بل استقر وغار في الأذهان أن الانتحال هو فكرة طه حسين ؛ لما لاقاه كتابه من صدى كبير في الأوساط العربية ،

^(١) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣٧٧.

^(٢) انظر : الرافعي ، مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب (مكتبة الإيمان ، مصر ، المنصورة ، (د.ط) ، (د.ت))

فقد آثار بآرائه الحفيظة العربية ، حيث جاءت نتيجة بحثه على صورة لم تعتدها العرب في دراستهم وخلص إلى غاية لا ينتظرها المعنيون بالأدب من عربي فضلاً من عارف بالدراسات الأدبية وله باع كبير في الأدب وضيع في علوم اللغة وفي العلوم الإنسانية بشكل كامل.

أشار طه حسين في أول كتابه إلى أن غايته من دراسة الأدب الجاهلي هي النظر في الشعر الجاهلي قصد إدراك أصوله ومصادره والتحقق منه من خلال المنهج العلمي -على حد قوله- ، حيث يقول مبيئاً هدفه الرئيس "بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق"^(١) ويقصد بالحق الطمأنينة إلى وجود هذا الشعر من عدمه ، ثم بعد ذلك يسعى للتعريف بمهيته ومقداره وبم يمتاز به عن غيره ، يقول طه حسين عن الدارسين المحدثين وفي ذلك إشارة ضمنية إليه بينهم "هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه ويتساءلون : أهنالك شعر جاهلي ؟ فإن كان هنالك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته ؟ وما هو ؟ ومما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟"^(٢) ، ويرى طه حسين أن هذا النوع من الدرس لم يكن متعارفاً عليه في الدراسات العربية ولم يسبق به ؛ ذلك لأن الدارسين ووفقاً لما ذكره اطمأنوا لما عليه القدماء ، واستقرت في أذهانهم صورة معينة عن الأدب الجاهلي ، وأصبح الحديث عنها بما يخالف تلك الصورة هو خرق للنسق الغائر في العقلية المهتمة بالأدب ، لذا حاول أن ينزع هذا التصور ويخرج من دائرة النسق ثم ينظر إليه وفق المنهج الذي تبناه في دراسته.

والمنهج العلمي الذي تبناه طه حسين في دراسة الأدب الجاهلي هو منهج الشك عند ديكارت ، وهو منهج فلسفي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء ، والقاعدة الأساسية لهذا المنهج -وفقاً لما ذكره طه حسين- هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، بحيث يخرج من النسق الاجتماعي الذي قر في الذهن ويظهر اللاواعي للواعي ثم يتناوله بالنقد والتساؤل ، يقول طه حسين "فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل .. يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها .. يجب

^(١) حسين ، طه ، في الأدب الجاهلي (دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ١٩ ، ت ٢٠١١ م) ص ٦٢.

^(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٤.

ألا نتقيد بشيء ولا ندعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح"^(١) ، وعلى هذا النحو درس طه حسين الأدب الجاهلي.^(٢)

ثم يدلّف طه حسين للنتيجة التي توصل إليها قبل أن يعرض الأسباب الموصلة إليها ، وقد استحضّر الصدمة التي قد تحدث للمتلقّي بسبب هذه النتيجة يقول "فأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث ، هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك ، أو قل ألح علي الشك ، فأخذت أبحث وأفكر ، وأقرأ وأتدبر ، حتى انتهى بي هذا البحث كله إلى شيء إلا يكن يقيناً فهو قريب من اليقين ، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين"^(٣) ، وقد جعل طه حسين له القرآن ركيزة أساسية لمعرفة حياة العرب الجاهلية ؛ ذلك لأن القرآن نص لا يأتيه الباطل فهو أصح نص يعتمد عليه الباحث في محاولة استظهار صورة العرب الجاهلية ، وقد خلص بعد بسط وعرض إلى أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة العقلية ولا الدينية ولا الاجتماعية كما عرض ذلك القرآن الكريم ؛ فمقارنة الحياة الجاهلية في القرآن وفي الشعر يجعل الباحث لا يجد توافقاً بين الحياتين ويتوصل من خلال ذلك إلى رفض الشعر التي جاء بهذه الحياة لأنه يخالف الأصل كما جاء به القرآن^(٤) ، ثم ينتقل تحت قسم آخر إلى أن الشعر لا يمثل اللغة العربية في ذلك العصر فالبحث العلمي - كما يزعم - أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة الجنوبية والشمالية ولأجل ذلك الشعر لا يمثل اللغة الجاهلية^(٥) ، ويرى أيضاً أن الشعر الجاهلي لا يُظهر اختلافاً بين اللهجات العربية رغم وجود الاختلاف بينهم والتباعد ، لذا يصل إلى أن ما يقال بأنه شعر جاهلي منحول عليهم من خلال المعطيات السابقة^(٦) ، وهذه النقطة بالتحديد هي عين ما قاله مرجليوث في مقالته عن الشعر الجاهلي.

^(١) في الأدب الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

^(٢) يبقى التساؤل "هل طبق طه حسين منهجه وفق طريقة عملية موضوعية ؟" قائماً بين النقاد.

^(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

^(٤) انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

^(٥) انظر : المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

^(٦) انظر : المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

وشرع بعد ذلك طه حسين في بيان أسباب الانتحال ، وقد مهد له بأن النحل ليس محصوراً على العرب فهو موجود في الأمم الأخرى كال يونانيين والرومان ، ثم ذكر أول الأسباب وهو السبب السياسي والعصبية التي حملت العرب على انتحال الشعر لذا على قارئ الأدب أن يشك في أي شعر جاهلي يقوي هذا الجانب^(١) ، والسبب الآخر عنده هو السبب الديني الذي يهدف من خلاله إلى إثبات نبوة النبي عليه السلام مثلاً ، أو تعظيم شأن أو إثبات أن القرآن موافق للشعر العربي فكان للعواطف الدينية تأثيراً في انتحال الشعر^(٢) ، ثم ينتقل بعد ذلك لسبب ثالث وهو القصص حيث أخذ طائفة من القصص انتحال الشعر طريقة لغاياتهم ، إما لتفسير مثل أو اسم أو مكان إلى غير ذلك مما يدفع القاص إلى النحل^(٣) ، كما يرى طه حسين أن الشعوية حملت الفرس إلى انتحال الشعر وهذا الأمر دفع العرب إلى الانتحال كي يفاخروا ويدفعوا فخر الفرس وأصدق ذلك كما يرى طه حسين ما كان بين العرب والموالي^(٤) ، ثم يختتم طه حسين هذا الباب بذكر أن من أسباب النحل هم الرواة الذين يتأثرون بما يتأثر به العرب أو الفرس ثم ما على بعضهم علامات الفسق والجهل لذا يرى أن من المهم جداً أن يدرس الأدب الجاهلي في ألفاظه ومعانيه كي يعرف صحيحه من منحوه^(٥) .

وبعدما درس طه حسين الشعر انتقل إلى دراسة الشعراء الفحول أنفسهم ، وبوب لذلك بابين كاملين ، بسط فيهما القول وعرض في إسهاب وتوصل إلى إنكار شعراء اليمن وريعة وأن فقط ماوصل من مضر بقي شيء منه صحيح لأسباب لعل أهمها اتصال الرواية وأيضاً تحلي خصائص بين شعرائهم كأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى ، وسمى لهؤلاء مدرسة تجمهم هي المدرسة المضربة^(٦) .

وصفوة ما قاله طه حسين هو ما قرره في أول كتابه من أن الشعر الجاهلي منحول نخله إسلاميين في العصر الإسلامي لأسباب مختلفة.

^(١) انظر : في الأدب الجاهلي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

^(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

^(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

^(٤) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

^(٥) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

^(٦) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٨٠ ، ص ٢٤٥ .

ولسنا بصدد عرض الردود على هذه الأسباب الواردة عند طه حسين ، فقد ألغت الكتب التي أعقبتها وردت عليها موضوعيتها وأصبحت قيمتها تاريخية لا أكثر ، والحقيقة أن الناظر لطريقة طه حسين لا بد وأن تستوقفه بعض القصور المنهجية المخالفة لمنهج الشك الذي بنى عليه طه دراسته وأجمل ما عرّف لي منها في نقاط :

- اعتمد منهج الشك في دراسته وقال بأنه يشك في كل ما جاء عن القدماء في حين أننا لا نرى ذات الشك في بعض المرويات التي ينقلها لتأكيد فكرة قد طرحها بينما هي مستمدة من كتاب كالأغاني وغيره ، وكأن الهدف هو تأكيد الفكرة بأي دليل وليس البحث عن الفكرة في مظاهرها ، والوصول إليها من خلال سبيل منهجية غير انتقائية.
- أنه نفى وجود الشعر ثم انطلق من هذا النفي ، وكأنه بذلك وضع الافتراض ثم ذهب يبحث عما يؤكده ، بينما الباحث وفق المنهج المقرر عند طه حسين يتجرد كما يقول طه من أي فكرة قد تحدد مساره وتأسره ثم تتحكم به في نسق قد يخفى عليه حتى هو.
- لم يذكر طه حسين منهجه في الشك ، وإنما عبّر بأنه يتجرد من كل صورة سابقة فالسبيل التي قصدها طه حسين لم تظهر واضحة في خطة منهجية بارزة يسير عليها ، وربما لكون الكتاب هو جملة محاضرات جمعت في كتاب.
- أكثر الدكتور طه حسين من قوله بأنه يسعى للشك وتطبيق المنهج الديكارتي ، وقد بسط النقد القول في ذلك وخلصوا إلى أنه لم يطبق منهج الشك عند ديكارت البتة وهذا مما يطول به المقام.^(١)
- على الرغم من أن طه حسين ينتهج منهج الشك ، إلا أن الناظر لكتابه يجد أنه لا يمرّض أفكاره بألفاظ من قبيل "لعل ، أظن ، إخال ، في اعتقادي" إلى غير ذلك ، وإنما يلمس الأحكام القاطعة مبثوثة في طيات الكتاب ، وليت شعري كيف يجمع بين هذا الشك كما عبر عنه الدكتور وتلك الأحكام الجازمة القاطعة التي لا تقبل حتى الاستدراك.

^(١) أفضل من بسط القول في نقد منهج طه حسين هو محمد أحمد الغمراوي في كتابه "النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي".

وهذا جملة ما يقال عند الحديث عن كتاب "في الأدب الجاهلي" وقد بسطت فيه القول ليقيني أنه المنعطف الأكثر تأثيراً في هذه القضية ، وأن ما سبقه من أقوال وأثر يختلف كلياً عما أعقبها فقد أحدث هذا الكتاب ثورةً وحركةً في الساحة الأدبية ، ولعل ذلك راجع لأمر إخال أنها السبب وراء تلك الثورة على الكتاب :

● الآراء التي يحملها هذا الكتاب تعد بدعاً من الرأي ، كما أنها تمس أمراً ذا شأن كبير في نفوس العرب ؛ فالشعر كان ولازال عزيزاً في النفوس العربية ومحاولة هدم أكثره أمر لا يمكن أن يتقبله المتلقي العربي دون ردة فعل.

● لم يكن المتلقي لينتظر أن تصدر هذه الآراء من عربي فضلاً من علم من أعلام الأدب والنقد.

● مسّت بعض آرائه جانباً شرعياً خصوصاً في كتابه "في الشعر الجاهلي" قبل أن يضيف عليه ويعدّل بعض مافيه في الطبعات التالية والتي سميت فيما بعد "في الأدب الجاهلي"^(١).

لقد أنتجت هذه الثورة على كتاب طه حسين كثيراً من المؤلفات التي سعت لنقض الكتاب ، فكان أول من استفتح الرد عليه -فيما أعلم- مصطفى صادق الرافعي في كتابه تحت راية القرآن ، وهو مجموعة مقالات شملت بعضاً منها الرد على طه حسين ولم يكن ردّاً دقيقاً شاملاً لكل ماعرضه طه حسين وإنما كانت بعضها مقالات هي محاولة لاستنفار الجامعة التي يعمل فيها طه حسين ، أو نقد لاذع لشخصيته وهو نقد أقرب مايكون لهجاء^(٢) ، ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة مقالات وكتب ، ومن أهم تلك الكتب كتاب "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" لمحمد الخضر حسين وقد كانت طريقته هي نقض كلام طه حسين بحيث يورد ما جاء في كتاب طه حسين ثم يبين مابه من خطأ ، وقد بين منهجه هذا في مقدمة كتابه يقول "وقد ارتأيت ألا أنقد فقرة أو فقرات إلا بعد أن أنقلها بحروفها ، وأحكيها كما صدرت من منشئها"^(٣) ، وأهم الكتب التي نقدت كتاب طه حسين هو كتاب "النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي" لمحمد أحمد الغمراوي وتكمن قيمة هذا الكتاب في كونه إضافة لنقد الأسباب الداعية لسقوط

^(١) يقول طه حسين في مقدمة كتاب في الأدب الجاهلي ، المرجع السابق "هذا كتاب السنة الماضية ، حُذف منه فصل وأثبت مكانه فصل وأضيفت إليه فصول ، وغَيَّرَ عنوانه بعض التغيير" ، والحقيقة بحثٌ عن النسخة الأولى ولم أجد لها وإنما عرفت بعض ماجاء فيها من خلال ردود بعض النقاد على الكتاب.

^(٢) انظر : الرافعي ، مصطفى صادق ، تحت راية القرآن ، مقال "إلى الجامعة المصرية" ومقال "أسلوب طه حسين" (دار ابن حزم ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٤٣٢هـ).

^(٣) حسين ، محمد الخضر ، نقض كتاب في الشعر الجاهلي (جداول ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ٢٠١٢م) ص ١٦٥.

الشعر الجاهلي عند طه حسين ، نقد الأهم من ذلك طريقة المنهج الذي أقام عليه طه حسين كتابه ، فتحت سؤال "هل طريقته في البحث علمية" كتب الدكتور الغمراوي نقدًا علميًا عميقًا توصل من خلاله إلا "أن الدكتور طه لم يكن علمياً في طريقة تطبيقه ما سماه منهج ديكرت على الأدب العربي"^(١). وعلى الرغم مما قيل عن الدكتور طه حسين إلا أنه يحفظ له اجتهاده وسعة معرفته ومحاولته نقل الدراسات الأدبية من كونها عرضاً إلى كونها دراسة منهجية علمية. لاشك أن الدارسين المحدثين قد بذلوا جهوداً كبيرة في إثبات نظرياتهم على اختلافها حول الشعر الجاهلي ، لكن اليقين هو أن الشعر الجاهلي لم تُزعزع حضوره تلك الآراء ، وبقي ثابتاً كما هو في الدرس الأدبي وإن اعتور بعض النفوس الشك وهزتها تلکم العوارض العابرة التي سرعان ما مضت ولم تخلف خلفها سوى ذكرى حضورها وإثارتها للساكن.

^(١) الغمراوي ، محمد أحمد ، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي (المطبعة السلفية ، مصر ، القاهرة ، (د.ط) ،

الخاتمة :

لقد حرصت على استقراء قضية الانتحال تاريخيًا والنظر في سيرورتها ثم الوقوف عند كل محطة وتبيان مافيها بعد عرضها ومناقشتها ، وقد بينت في المبحث الأول أن الانتحال حاضر بقوة في الإدراك العربي القديم ، وأن ذلك من لوازم المرحلة التعبيرية التي كانت وقتئذ ، وذكرت مستندًا على بعض الشواهد أن العرب سعت للتقليل من الانتحال بملكة الذاكرة والحافظة التي يعتمد عليها عصر الرواية كثيرًا في حفظ المرويات ، ثم عرجت على المبحث الثاني وبيّنت كيف كان دورُ النقاد العرب القدماء ، وعرضت بعض النصوص التي تُظهر نظرتهم لقضية الانتحال ، وخلصت إلى أنهم كانوا على طريقتين ؛ منهم من يبين النصوص المنحولة حين يُعرض عليه الشعر وهم الأغلب ، ومنهم من سعى لدراسة القضية دراسة بدأت تتجلى فيها الطريقة العلمية الحديثة كما عند ابن سلام وابن هشام ، وفي المبحث الثالث ذكرتُ دور المستشرقين في هذه القضية ودوافعهم واختلاف رؤيتهم ، وظهرتُ على ثلاث صور ؛ فريق شك فيما هو ثابت ، وفريق آخر أنكر الشعرَ جملة وقال بأنه منحول على الجاهليين ، وفريق ثالث رفض ما وصل إليه أضرابه من المستشرقين وقال بما قالت به العرب قديمًا ، ثم ختمت بالمنعطف الأهم في القضية وهم العرب المحدثون وتوقفت عند أول دراسة عندهم وكانت عند الرافعي ، وظهر أنه لم يتجاوز ما عليه القدماء ، ثم عرضت وبسطت دراسة طه حسين لأنها الأهم في هذه القضية ، حيث درس القضية دراسة وفق منهج فلسفي وتوصل إلى نتيجة مفادها أن الشعر الجاهلي أكثره منحول ، ولم تبَقْ دراسته دون رد حيث أثارت الحركة الدراسية العربية ورد عليه كثير من الأدباء ونقضوا أقواله وأسبابه وذكرت أهم تلك الدراسات التي نقضت أقواله .

وختامًا أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما جهلنا ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المصادر والمراجع :

- ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، مصر ، القاهرة ، د.ط ، ت ١٤٢٣هـ.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، لسان العرب ، دار صادر ، لبنان ، بيروت ، ط ٣ ، ت ١٤١٤هـ.
- الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ٥ ، ت ١٩٨٧م.
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، ت ١٤٢٤هـ.
- الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود شاكر ، دار المدني ، السعودية ، جدة ، د.ط ، د.ت.
- حسين ، طه ، في الأدب الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ١٩ ، ت ٢٠١١م.
- حسين ، محمد الخضر ، نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، جداول ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ٢٠١٢م.
- الخراشي ، عبدالعزيز بن عبدالله ، ظاهرة حديث الشعر عن الشعر ، جامعة الملك سعود ، السعودية ، الرياض ، د.ط ، ١٤٣٣هـ.
- الرافعي ، مصطفى صادق :
 - تحت راية القرآن ، دار ابن حزم ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٤٣٢هـ.
 - تاريخ آداب العرب ، مكتبة الإيمان ، مصر ، المنصورة ، د.ط ، د.ت.
- الزيات ، أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعرفة ، لبنان ، بيروت ، ط ١٥ ، ١٤٣٥هـ.
- ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط ٣٣ ، ت ٢٠١٣م.
- العماري ، فضل ، تأصيل الشعر الجاهلي ، مركز حمد الجاسر ، السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٣٠هـ.
- الغدامي ، عبدالله ، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، الدار البيضاء ، ط ٣ ، ت ٢٠١١م.
- الغمراوي ، محمد أحمد ، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، المطبعة السلفية ، مصر ، القاهرة ، د.ط ، ت ١٣٤٧هـ.
- نولدكة ، وليم ألورد ، مرجليوث ، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي ، ترجمة : عبدالرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٩٧٩م.
- هلال ، محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، مصر ، الجيزة ، ط ٩ ، ٢٠١٠م.

الفهرس :

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| مقدمة | ٢ |
| حضور مفهوم الانتحال في الإدراك العربي القديم | ٣ |
| قضية الانتحال عند النقاد العرب القدماء | ٨ |
| قضية الانتحال عند النقاد المحدثين | ١٢ |
| ▪ المستشرقون | ١٢ |
| ▪ العرب | ١٧ |
| الخاتمة | ٢٤ |
| المصادر والمراجع | ٢٥ |